

فتاة البحر





فتاة البحر

فِي أَعْمَاقِ ٱلْبَحْرِ حَيْثُ ٱلْمَاءُ يَتَلَوَّنُ بِزُرْقَةٍ قَاتِمَةٍ، وَفِي وَسَطِ ٱلْأَعْشَابِ ٱلْبَحْرِيَّةِ وَٱلْمَلَايِينِ مِنَ ٱلْأَسْمَاكِ، كَانَ فِي قَدِيمِ ٱلزَّمَانِ قَصْرٌ فَخْمٌ لَا تَرَاهُ ٱلْمَرَاكِبُ ٱلْمَاخِرَةُ عَلَى سَطْحِ ٱلْمَاءِ وَلَا تَتَصَوَّرُ أَنَّهَا تَمُرُّ فَوْقَ عَالَمٍ عَجِيبٍ غَرِيبٍ. فَكَمْ مِنَ ٱلْبَحَّارَةِ أَطَلُّوا مِنْ فَوْقِ مَرَاكِبِهِمْ عَلَى ٱلْبَحْرِ وَحَدَّقُوا إِلَيْهِ لٰكِنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا شَيْئًا.



عَلى أَنَّ هٰذَا ٱلْعَالَمَ ٱلْعَجِيبَ مَوْجُودٌ حَقًّا وَقَدْ سَمِعَ بِهِ بَعْضُ ٱلنَّاسِ.

وَكَانَ فِي أَعْمَاقِ ٱلْبَحْرِ قَصْرٌ تَعِيشُ فِيهِ مَلِكَةٌ عَجُوزٌ وَٱبْنُهَا ٱلْمَلِكُ وَبَنَاتُهُ وَكَانَتْ صُغْرَى بَنَاتِهِ تُدْعَى سِيرِينَا وَهِيَ أَجْمَلُهُنَّ لٰكِنَّهَا كَانَتْ دَوْمًا كَئِيبَةً حَزِينَةً لَا تَنْفَكُّ عَنِ ٱلْبُكَاءِ. تَقُولُ هٰذَا عَلَى فَرْضِ أَنَّ فَتَيَاتِ ٱلْبَحْرِ يَسْتَطِعْنَ ٱلْبُكَاءَ. وَكَانَتْ سِيرِينَا تُكَلِّمُ دَوْمًا جَدَّتَهَا ٱلْمَلِكَةَ ٱلْعَجُوزَ وَتَطْلُبُ إِلَيْهَا بِرَغْبَةٍ مُلِحَّةٍ أَنْ تَأْذَنَ لَهَا بِٱلصُّعُودِ إِلَى سَطْحِ ٱلْمَاءِ حَيْثُ تَذْهَبُ أَخَوَاتُهَا وَيَعُدْنَ إِلَيْهَا وَيُحَدِّثْنَهَا بِمَا رَأَيْنَ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْمُدْهِشَةِ.





وكَانَتْ سِيرِينَا تُرَدِّدُ عَلَى جَدَّتِهَا قَائِلَةً: - مَتَى أَسْتَطِيعُ رُؤْيَةَ ٱلشَّمْسِ؟ فَتَقُولُ لَهَا جَدَّتُهَا: - تَرَيْنَ ٱلشَّمْسَ عِنْدَمَا تَبْلُغِينَ ٱلْخَامِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ سِنِّكِ.

وَلَمَّا بَلَغَتْ سِيرِينَا هَذِهِ ٱلسِّنَّ صَعِدَتْ فِي صَبَاحِ يَوْمٍ إِلَى سَطْحِ ٱلْبَحْرِ فَرَأَتْ أَشْيَاءَ هِيَ أَعْجَبُ بِكَثِيرٍ مِمَّا رَوَتْهُ لَهَا أَخَوَاتُهَا. وَكَانَ عَلَى ٱلْمَاءِ مَرْكَبٌ مَاخِرٌ فَتَبِعَتْهُ وَشَاهَدَتْ عَلَى ظَهْرِهِ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْبَحَّارَةِ مُتَحَلِّقِينَ حَوْلَ أَمِيرٍ بَهِيِّ ٱلْمَنْظَرِ لَهُ عَيْنَانِ سَوْدَاوَانِ كَأَنَّهُمَا مِنْ فَحْمٍ فَشُدِهَتْ سِيرِينَا بِهِ وَرَاحَتْ لَا تَقْوَى عَلَى تَحْوِيلِ نَظَرِهَا عَنْهُ وَعَنْ عَيْنَيْهِ ٱلسَّاحِرَتَيْنِ. وَظَلَّتْ تَسْبَحُ وَرَاءَ ٱلْمَرْكَبِ بِٱلرُّغْمِ مِنِ ٱنْعِكَارِ ٱلسَّمَاءِ وَإِنْذَارِهَا بِعَاصِفَةٍ شَدِيدَةٍ. وَهَاجَ ٱلْبَحْرُ وَتَعَالَتْ أَمْوَاجُهُ كَٱلْجِبَالِ وَبِأَقَلَّ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ غَمَرَتِ ٱلْمَرْكَبَ فَغَاصَ فِي ٱللُّجَّةِ بِجَمِيعِ بَحَّارَتِهِ وَرُكَّابِهِ وَٱقْتَحَمَتْ سِيرِينَا ٱلْخَطَرَ وَعَارَكَتِ ٱلْأَمْوَاجَ حَتَّى ٱقْتَرَبَتْ مِنَ ٱلْأَمِيرِ وَأَنْقَذَتْهُ.







وَلَمَّا عَادَتْ إِلَى قَصْرِهَا أَخْفَتْ عَنْ أَخَوَاتِهَا مَا حَدَثَ لَهَا لَكِنَّهَا مُنْـذُ ذٰلِكَ ٱلْحِينِ تَوَلَّاهَا حُزْنٌ شَدِيدٌ وَزَهِدَتْ فِي ٱللَّهْوِ وَٱللَّعِبِ وَبَاتَتْ لَا تُفَكِّرُ إِلَّا بِأَمِيرِهَا وَتُسَائِلُ نَفْسَهَا مَتَى تَحْظَى بِرُؤْيَتِهِ مَرَّةً ثَانِيَةً.

وَكَانَ فِي أَعْمَاقِ ٱلْبَحْرِ حَيْثُ ٱلْمَاءُ يُشْبِهُ ٱلْحِبْرَ بِسَوَادِهِ، سَاحِرَةٌ عَجُوزٌ تَخَافُهَـا سِيرِينَا وَتَرْتَعِدُ فَرَائِصُهَا كُلَّمَا فَكَّرَتْ فِي أَنَّهَا قَدْ تَلْتَقِي بِهَا.



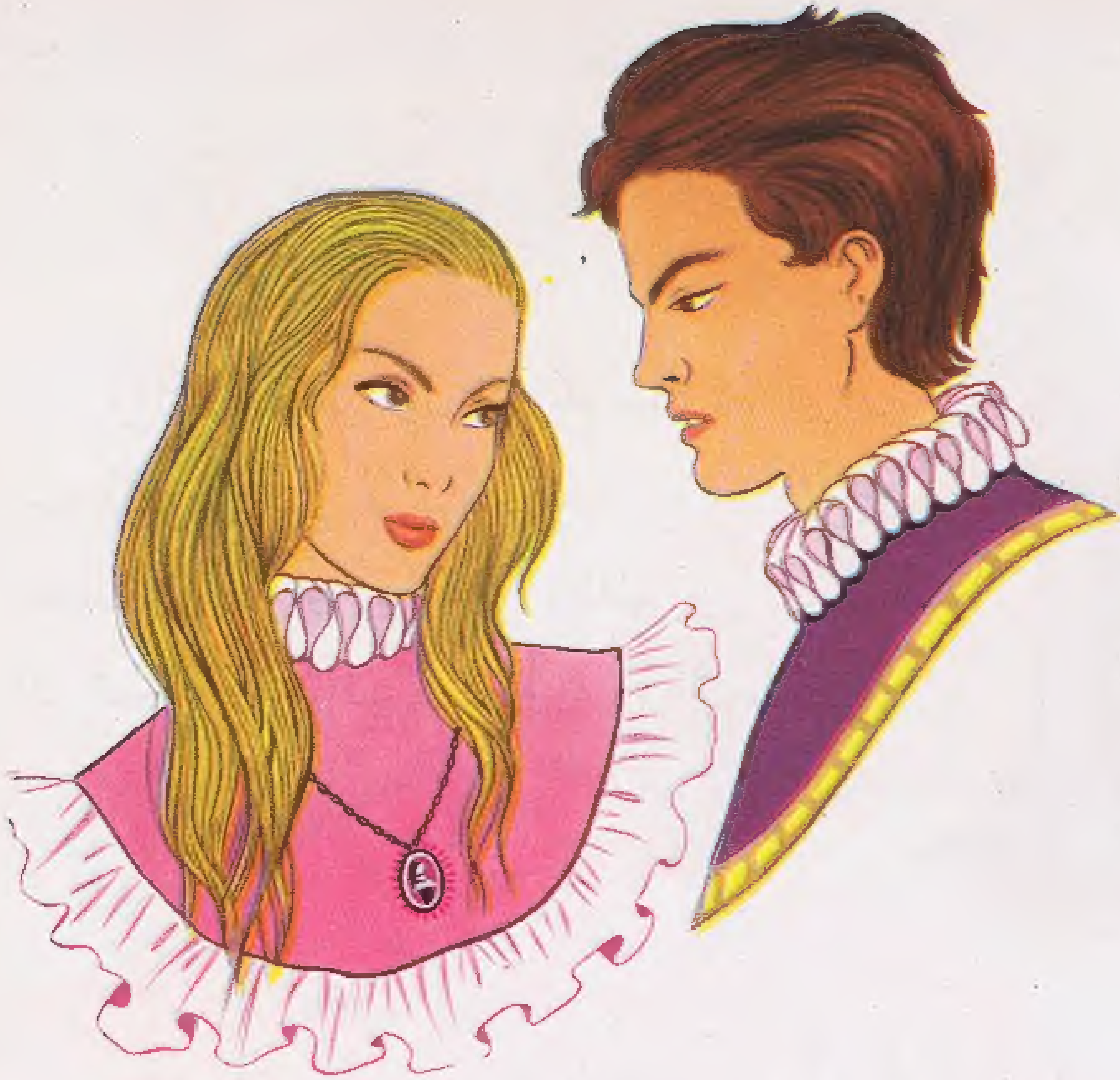
وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ قَصَدَتْ بِالرَّغْمِ مِنْ خَوْفِهَا إِلَى بَيْتِ ٱلسَّاحِرَةِ دُونَ أَنْ تُشْعِرَ بِذٰلِكَ أَحَدًا وَلَمَّا صَارَتْ عِنْدَ بَابِهَا أَخَذَ قَلْبُ ٱلْفَتَاةِ يَخْفُقُ ذُعْرًا لٰكِنَّ ٱلسَّاحِرَةَ نَظَرَتْ إِلَيْهَا وَتَبَسَّمَتِ ٱبْتِسَامَةً صَفْرَاءَ.

ثُمَّ قَالَتْ: ـ أَنَا أَدْرِي مَا تُرِيدِينَ مِنِّي غَيْرَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِي مِنْ إِنْبَائِكِ بِأَنَّ ٱلْأَمِيرَ يَتَزَوَّجُ بِفَتَاةٍ غَيْرِكِ إِنْ لَمْ تَتَزَوَّجِي بِهِ هٰذَا ٱلْيَوْمَ. أَمَّا أَنْتِ فَتُمْسَخِينَ قِرْدَةً. فَهَلْ تَقْتَرِنِينَ بِهِ؟

فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا أَنَّهَا تَرْضَى. وَكَانَتْ عَلَى خَوْفٍ شَدِيدٍ.

ثُمَّ قَالَتْ لَهَا ٱلسَّاحِرَةُ: ـ إِذَا صَعِدْتِ إِلَى ٱلْبَرِّ فَٱشْرَبِي هٰذَا ٱلشَّرَابَ ٱلْمَسْحُورَ فَتُصْبِحِي كَٱلْفَتَيَاتِ ٱللَّائِي يَعِشْنَ عَلَى سَطْحِ ٱلْأَرْضِ لٰكِنِّي أُرِيدُ مِنْكِ مُقَابِلَ ذٰلِكَ أَنْ تُعْطِينِي لِسَانَكِ. وَبِضَرْبَةٍ قَطَعَتْ لَهَا لِسَانَهَا.





وَعَثَرَ بِهَا ٱلْأَمِيرُ عَلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ وَقَدْ أُغْمِيَ عَلَيْهَا.

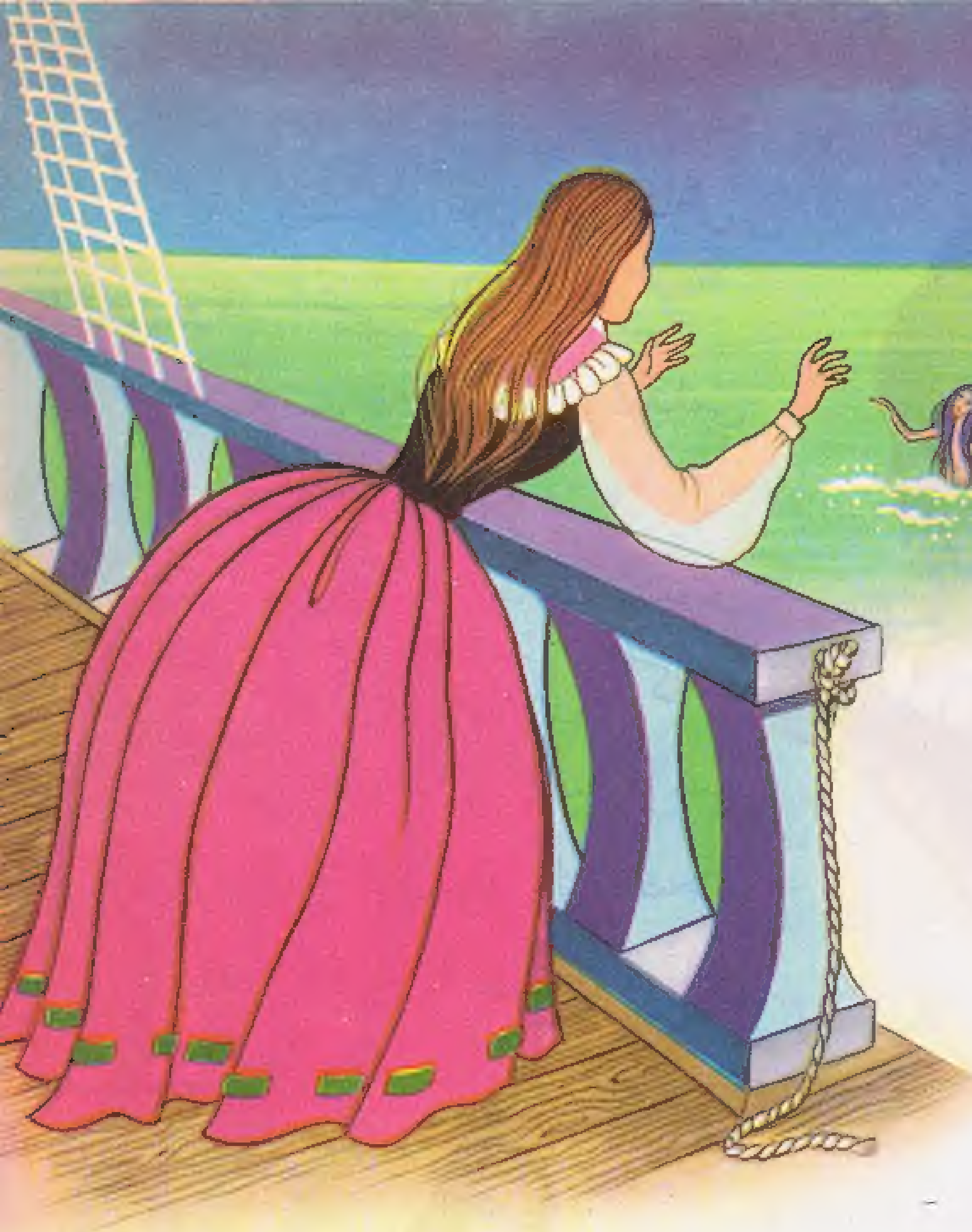
وَلَمَّا أَفَاقَتْ قَالَ لَهَا: ـ تَكَلَّمِي لِمَاذَا لَا تَتَكَلَّمِينَ؟

لَكِنَّ سِيرِينَا مَا كَانَتْ تَقْوَى عَلَى ٱلْكَلَامِ. فَكَمْ مِنْ شَيْءٍ كَانَتْ تَوَدُّ أَنْ تَقُولَ لَهُ وَكَمْ كَانَتْ تَرْغَبُ فِي إِخْبَارِهِ عَنِ ٱلتَّضْحِيَةِ ٱلَّتِي ضَحَّتْهَا مِنْ أَجْلِهِ. لَكِنْ مَا تَصْنَعُ وَهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ ذٰلِكَ!



ثُمَّ ذَهَبَ بِهَا ٱلْأَمِيرُ إِلَى قَصْرِهِ وَقَالَ لَهَا إِنَّهَا سَتَظَلُّ مَعَهُ إِلَى ٱلْأَبَدِ. فَلَا تَسَلْ عَنْ سُرُورِ سِيرِينَا وَٱغْتِبَاطِهَا عِنْدَمَا سَمِعَتْ هٰذَا ٱلْكَلَامَ.

وَكَانَ ٱلْأَمِيرُ يُرَدِّدُ دَوْمًا عَلَى سِيرِينَا خَبَرَ ٱلْفَتَاةِ ٱلَّتِي أَنْقَذَتْهُ مِنَ ٱلْغَرَقِ وَيَقُولُ لَهَا إِنَّهَا تُشْبِهُهَا فَتَحْزَنُ سِيرِينَا حُزْنًا شَدِيدًا لِأَنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُفْهِمَهُ أَنَّهَا هِيَ ٱلَّتِي أَنْقَذَتْهُ مِنَ ٱلْمَوْتِ.



وَٱنقَضَتْ عَلَى ذٰلِكَ أَيَّامٌ وَأَعْوَامٌ إِلَى أَنْ جَاءَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي ضُرِبَ مَوْعِدًا لِزَوَاجِ ٱلْأَمِيرِ فَصَعِدَ ٱلْأَمِيرُ إِلَى مَرْكَبِهِ وَطَلَبَ مِنْ سِيرِينَا أَنْ تَصْحَبَهُ لِلتَّعَرُّفِ إِلَى خَطِيبَتِهِ وَقَالَ لَهَا:

ـ أَنَا، لَوْ تَعْلَمِينَ، حَزِينٌ جِدًّا لِأَنِّي أُحِبُّ ٱلْفَتَاةَ ٱلَّتِي أَنْقَذَتْنِي وَلَا أُحِبُّ فَتَاةً سِوَاهَا.

وَفِي لَيْلَةٍ مِنَ ٱللَّيَالِي ظَهَرَتْ بِٱلْقُرْبِ مِنَ ٱلْمَرْكَبِ أَخَوَاتُ سِيرِينَا فَوَدَّتْ لَوْ أَخْبَرَتْهُنَّ بِسَعَادَتِهَا. لٰكِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ إِلَّا ٱلْإِشَارَةَ لَهُنَّ بِٱلْيَدِ وَتَابَعَ ٱلْمَرْكَبُ سَيْرَهُ وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ بَلَغَ ٱلْمَرْفَأَ حَيْثُ تَنْتَظِرُهُ ٱلْفَتَاةُ ٱلَّتِي يَنْوِي ٱلتَّزَوُّجَ بِهَا. وَأُقِيمَتْ عَلَى ظَهْرِ ٱلْمَرْكَبِ حَفْلَةٌ عَظِيمَةٌ طَلَبَ فِيهَا ٱلْأَمِيرُ إِلَى سِيرِينَا أَنْ تَرْقُصَ.

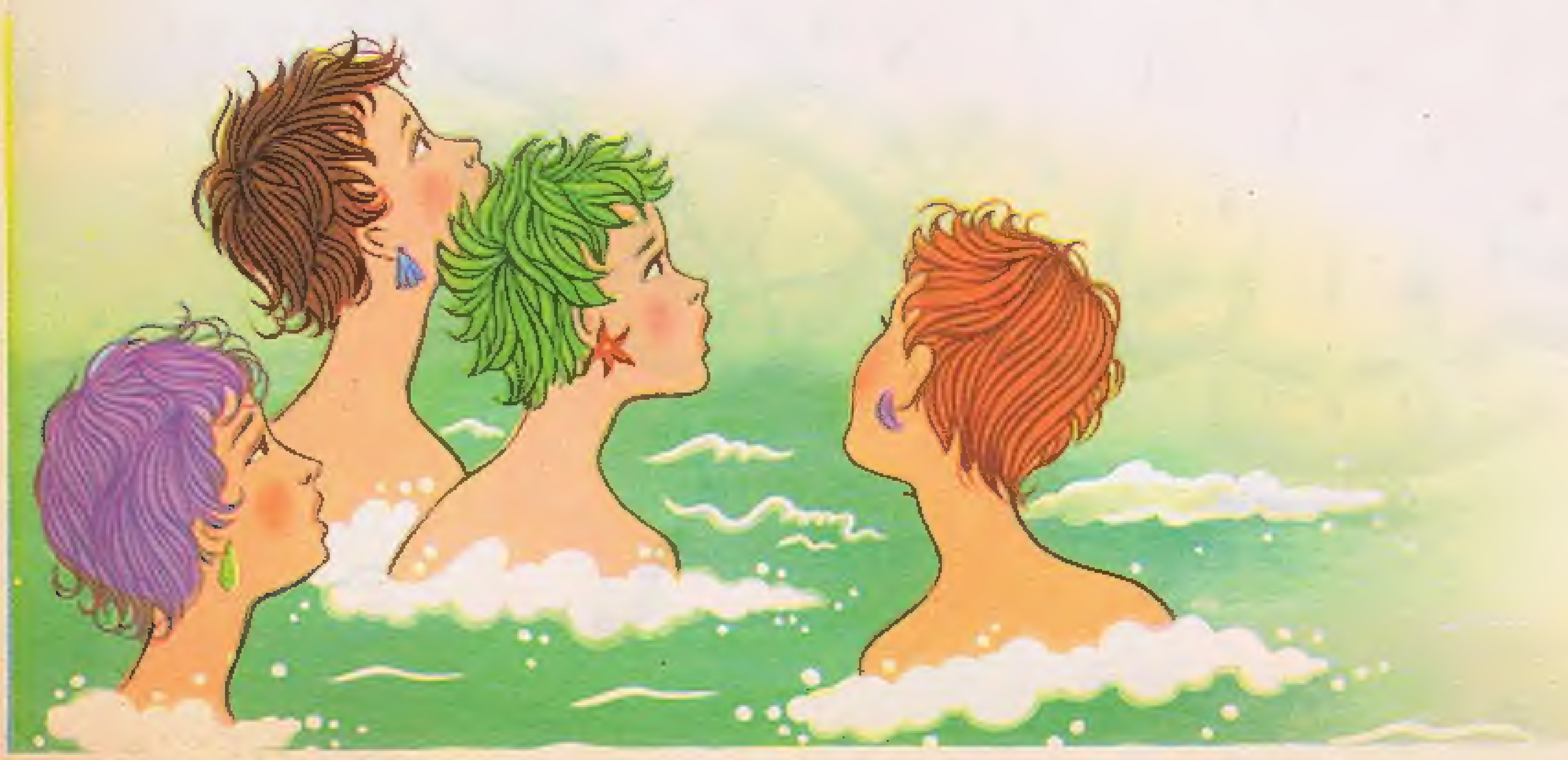






فَرَقَصَتْ وَرَقَصَ ٱلْبَحَّارَةُ وَغَنَّوْا وَعَزَفُوا ٱبْتِهَاجًا بِٱلأَمِيرِ وَعَرُوسِهِ.

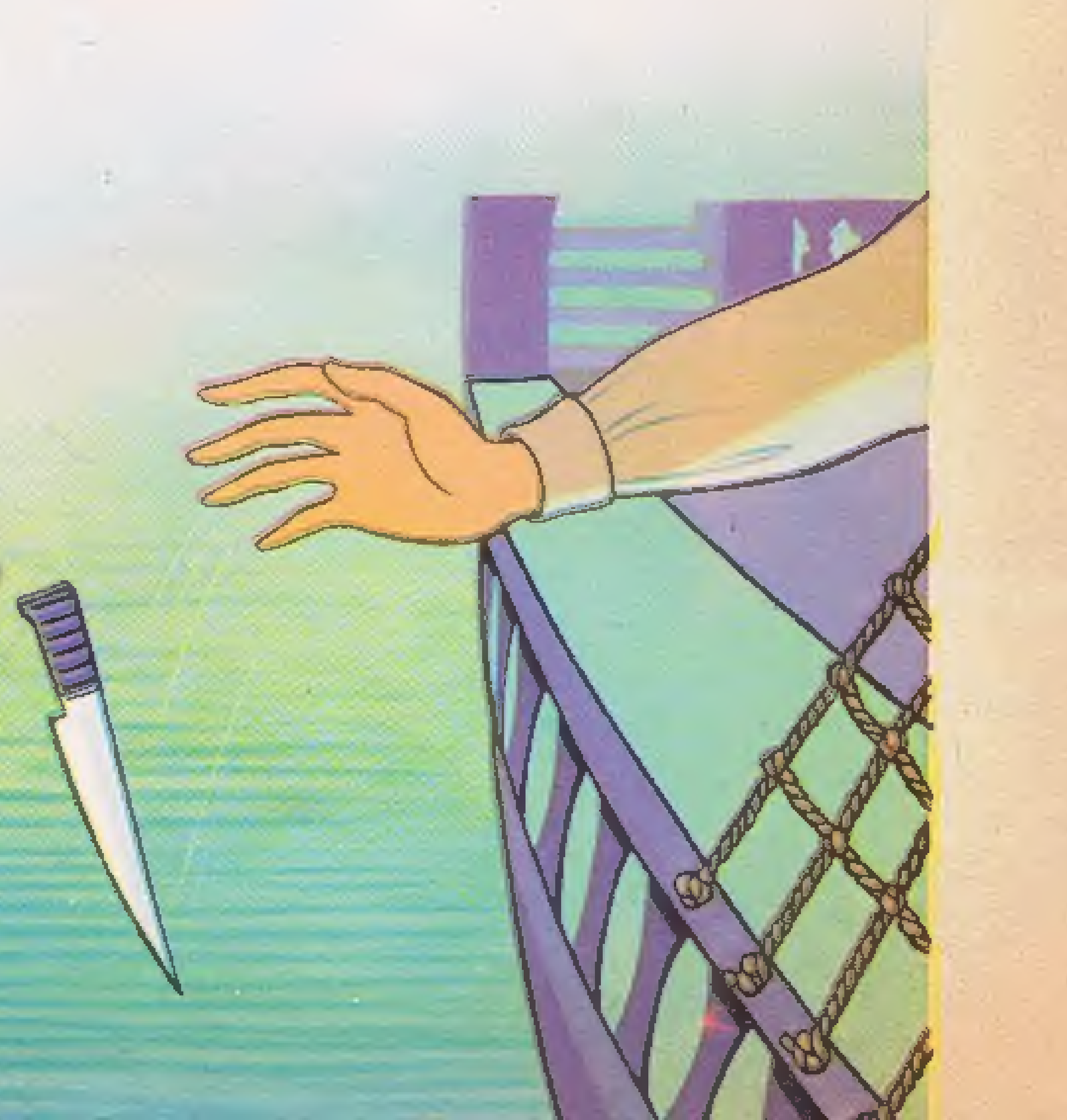
وَلَمَّا ٱنْتَصَفَ ٱللَّيْلُ سَمِعَتْ سِيرِينَا صَوْتًا خَافِتًا يُنَادِيهَا بِٱسْمِهَا فَهَرْوَلَتْ إِلَى حَافَّةِ ٱلْمَرْكَبِ وَرَأَتْ أَخَوَاتِهَا يَسْبَحْنَ بِجِوَارِهِ وَقَدْ قَصَصْنَ شُعُورَهُنَّ وَقَدَّمْنَهَا إِلَى ٱلسَّاحِرَةِ ٱفْتِدَاءً لَهَا. وَقَالَتْ لَهَا أَخَوَاتُهَا: ـ لَا تَخْشَيْ بَعْدُ ٱلآنَ أَنْ تُمْسَخِي قِرْدَةً. خُذِي هٰذَا ٱلْخَنْجَرَ وَٱطْعَنِي بِهِ قَلْبَ ٱلْأَمِيرِ فَمَا يَقَعُ عَلَى سَاقِكِ مِنْ دَمِهِ يُحَوِّلُ ٱلسَّاقَ إِلَى ذَنَبٍ كَأَذْنَابِنَا ثُمَّ تَلْحَقِينَ بِنَا وَنَذْهَبُ مَعًا..





فَأَخَذَتْ سِيرِينَا ٱلْخَنْجَرَ وَمَشَتْ إِلَى غُرْفَةِ ٱلْأَمِيرِ عَلَى رُؤُوسِ أَصَابِعِ رِجْلَيْهَا وَكَانَ ٱلْأَمِيرُ نَائِمًا فَلَمَّا رَأَتْهُ ٱضْطَرَبَتْ يَدُهَا وَأَدْرَكَتْ أَنَّهَا لَا تَقْوَى عَلَى ٱرْتِكَابِ مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْجَرِيمَةِ. وَفَضَّلَتْ أَنْ تُمْسَخَ قِرْدَةً وَخَرَجَتْ مِنَ ٱلْغُرْفَةِ وَرَمَتِ ٱلْخَنْجَرَ ثُمَّ أَلْقَتْ بِنَفْسِهَا فِي ٱلْيَمِّ.

وَفِي ٱلْحَالِ رَأَتْ صَبَايَا يَطِرْنَ حَوْلَ ٱلْمَرْكَبِ بِلَا أَجْنِحَةٍ فَسَأَلَتْهُنَّ قَائِلَةً، - مَنْ أَنْتُنَّ؟ فَأَجَبْنَهَا، - نَحْنُ بَنَاتُ ٱلْهَوَاءِ نَطِيرُ فِي ٱلْأَجْوَاءِ وَنُخَفِّفُ مِنْ شَقَاءِ ٱلنَّاسِ بِشَتَّى ٱلْوَسَائِلِ ٱلَّتِي لَدَيْنَا فَإِذَا قَضَيْنَا مِئَةَ سَنَةٍ فِي عَمَلِ ٱلْخَيْرِ قَدْرَ ٱسْتِطَاعَتِنَا وَهَبَنَا ٱللهُ رُوحًا خَالِدَةً. أَمَّا أَنْتِ يَا سِيرِينَا فَقَدْ شَقِيتِ وَتَعَذَّبْتِ كَثِيرًا فَحَقٌّ لَكِ أَنْ تَكُونِي رُوحًا خَالِدَةً.





فَٱغْرَوْرَقَتْ عَيْنَا سِيرِينَا بِٱلدَّمْعِ مِنْ شِدَّةِ سُرُورِهَا وَطَارَتْ مَعَ بَنَاتِ ٱلْهَوَاءِ إِلَى ٱلْأَعَالِي بَيْنَ ٱلْغُيُومِ ٱلشَّقْرَاءِ وَٱلْأَثِيرِ ٱلْأَزْرَقِ.



قوس الغمام

٤

منشورات المكتبة البولسية
شارع لبنان - بيروت - ص.ب: ٤٤٥٩-١١ لبنان
هاتف: ٤٤٤٩٧٣ - ٤٤٨٨٠٦ - ٤٤٩٨٠١
شارع القديس بولس - جونيه - ص.ب: ١٢٥ لبنان
هاتف: ٩١١٥٦١ - ٩٣٣٠٥٢